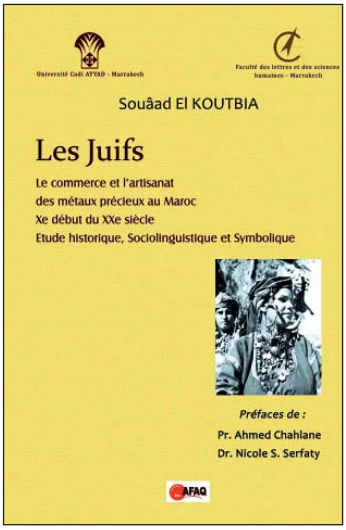

Souâad El Koutbia.- ***Les Juifs: Le commerce et l'artisanat des métaux précieux au Maroc, X^e^-début du XX^e^ siècle, Etude historique, Sociolinguistique et Symbolique*** **(Marrakech: Publications de l'Université Cadi Ayyad, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, édition AFAQ pour les Études, Édition et Communication, 2016)**.

أصدرت سعاد الكتبية، أستاذة مادة اللغة العبرية وفقه اللغة السامي المقارن بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، ضمن منشورات الكلية نفسها، كتابا حول احتراف اليهود المغاربة للصياغة والمتاجرة في المعادن الثمينة كالذهب والفضة، وذلك خلال فترة زمنية طويلة نسبيا، تمتد من مطلع القرن العاشر الميلادي إلى حدود منتصف القرن العشرين. والكتاب في الأصل دراسة تقدمت بها الباحثة للحصول على شهادة الدكتوراه في الدراسات العبرية بجامعة باريس VIII، تحت إشراف حاييم الزعفراني، وجرت مناقشتها علنيا سنة 1992، ثم أضافت لها منذ ذلك التاريخ مجموعة من المعطيات وقامت بتنقيحها، قبل إصدارها في الكتاب الحديث النشر.

ويتعلق الأمر بدراسة تاريخية وسوسيولسانية ورمزية، توخت الباحثة من ورائها موضعة تاريخ اليهود المغاربة من جديد في سياقه التاريخي والاقتصادي، وإبراز قيمة الإسهام الحِرفي اليهودي في التراث الفني المغربي عموما. وقد أكدت الباحثة في تقديمها للكتاب على أن استمرارية اليهود المغاربة في مزاولة هذه الأنشطة الحرفية والتجارية راجع بالأساس إلى التعايش السلمي مع المسلمين، والحركية المستمرة التي ميزت الحرفيين اليهود في تنقلهم بين القبائل والمُدن، وإعراض المغاربة المسلمين عن ممارسة هذا النوع من الحرف لأسباب دينية، وهو ما دفع باليهود المغاربة لخوض غمارها دون غيرهم.

حظي الكتاب المنشور بتقديم مزدوج، حرَّر الأول منهما الأستاذ أحمد شحلان، وحرَّرت الثاني الباحثة نيكول سرفاتي (Nicole Serfaty)، وقد أكدا معا في تقديمهما على جِدِّية الدراسة ودقتها على المستوى المعرفي والمنهجي. أما الدراسة فتتكون من محورين أساسيين، يهم الأول منهما، التتبع التاريخي لأنشطة التعدين في المغرب من العصر الوسيط إلى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وما اتصل بها من أنشطة اقتصادية أخرى كالصياغة وسك النقود والتجارة، وهي أنشطة استقطبت اليهود المغاربة الذين سعوا إلى تطويرها وملاءمتها مع متطلبات وحاجيات الزبائن اليهود والمسلمين. وقد قسمت الباحثة هذا المحور إلى خمسة فصول طغى عليها التقسيم الكرونولوجي كوسيلة إجرائية للإمساك بزمام الموضوع. أما المحور الثاني من الدراسة، فخصصته الباحثة للموروث العِبري في صياغة المعادن الثمينة وقيمته داخل بنية المتخيل اليهودي المغربي، وقد جرى تقسيمه إلى فصلين، هَمَّ الأول منهما الوظيفة الرمزية لبعض الأشكال الزخرفية، أما الثاني فجاء مكرسا لدراسة مقارنة لثلاث رسائل إسلامية ويهودية في علوم السحر والتنجيم، باعتبارها مكملة للفصل السابق.

استهلت الباحثة المحور الأول من الكتاب بالبحث في القيمة النقدية للحلي والمجوهرات، فأكدت بعد عرضها لمجموعة من النصوص التاريخية الوسيطية، على حضور أنشطة التعدين بالمغرب خلال هذه الحقبة، موضحة مسار المعادن المُنتجَة في المغرب آنذاك، فقد كانت تستعمل في المقايضة مع بلدان غرب إفريقيا، وكبديل للنقود القليلة التداول في بعض أقاليم المغرب كسوس على سبيل المثال خلال القرن الحادي عشر الميلادي. أما بالنسبة لمراكز الإنتاج، فقد كانت أكثر تطورا في الجنوب المغربي مقارنة بالشمال، ومن أهمها سوس وسجلماسة وتامدولت وفازاز، وهو ما كان له كبير الأثر في التوزيع الجغرافي لليهود المغاربة، إذ انتظمت عناصر هذه الفئة على طول المحاور التجارية العابرة للصحراء واستقرت بأهم مراكز الإنتاج المعدني حيث تعاطت للصياغة والتجارة في المعادن المستخرجة.

تفترض الباحثة أن اليهود المتعاطين لحرفة الصياغة، اضطروا للبحث في الجنوب المغربي بشكل منظم عن المادة الأولية الضرورية لعملهم ولتجارة

المعادن، فالعديد منهم كانوا يسافرون ويستبدلون الحلي بالذهب في عين المكان، ويشهد الإخباريون والجغرافيون العرب أمثال أبي الفداء والعمري وابن بطوطة والقلقشندي على وصول هذه المصنوعات اليهودية إلى إفريقيا السوداء ما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الميلادي. ولعل هذه المقايضة سهلت انتشار أفكار جديدة بإفريقيا السوداء، فخلال هذه الحقبة بالذات، بدأت الديانة اليهودية تتغلغل تدريجيا في هذا الجزء من القارة الإفريقية، ومرد ذلك حسب نفس الباحثة لوصول الحرفيين والتجار اليهود إلى هذه المناطق.

ومع حلول القرن السادس عشر الميلادي، ستشهد الوضعية الاقتصادية بالمغرب تحولات عميقة نتيجة استنفاد مدخرات مناجم الفضة، وتغيير خط المسالك التجارية، وهو ما ألحق ضررا كبيرا بأكثر مراكز الإنتاج والتصنيع المعدني دينامية. إلا أن هذه الأزمة لم تكن عامة وبنفس الحدة في مختلف جهات المغرب، فالجنوب على سبيل المثال، أفلت لأسباب اجتماعية واقتصادية وجغرافية من هذه الأزمة واستمر في استغلال موارده الطبيعية، فكان ذلك ضامنا لاستمرار الحرفيين اليهود في مزاولة الصياغة، وستستقبل مدن أخرى كتارودانت على سبيل المثال صاغة يهود جُدد من أصول إسبانية هم الميگوراشيم النازحون من إسبانيا بعد صدور قرارات الطرد. ولعل قرار استقرار هذه الجالية اليهودية بهذه المدينة الجنوبية التي كانت عاصمة للسعديين في بدايات دولتهم، راجع حسب الباحثة لموقعها الاستراتيجي على طول طرق القوافل التجارية الحاملة للذهب الإفريقي، وازدهار المدينة اقتصاديا في العهد السعدي.

كان للتقلبات الاقتصادية والسياسية في الجنوب المغربي خلال القرن السابع عشر والثامن عشر حسب نفس الباحثة، أثر بارز على الحرفيين اليهود المشتغلين في المنطقة. فتدهور التجارة العابرة للصحراء، والعودة إلى الاقتصاد الزراعي الرعوي، والمرور إلى مجتمع قبلي يُسَيَّرُ اقتصاديا وسياسيا من قبل شيخ القبيلة، كلها عوامل زادت في قوة تمسك اليهود بالأنشطة الحرفية، خاصة منها صناعة الحلي والمتاجرة في المعادن الثمينة، فالأعراف المحلية منعت اليهود كما هو معلوم من امتلاك الأرض كما هو الحال لدى أيت عطا وأيت يافلمان بالجنوب الشرقي وفي الأطلس الصغير.

وتشهد النصوص الرَّبِّية اليهودية على حياة التجوال التي بدأ الحرفيون اليهود في خوضها لضمان عيشهم، فكانوا يتنقلون بشكل دوري من قبيلة لأخرى، ليتحول ذلك إلى طابع خاص ملازم ليهود هذه المرحلة، وقد انعكس هذا التحول حسب الباحثة سعاد الكتبية على الإنتاج النوازلي اليهودي (التقنوت والرِّيسبُونسا)، الذي حاول إيجاد حلول للنزاعات والصعوبات القانونية التي كان يعاني منها اليهود المغاربة خاصة منها مشكل الحماية في ظل انعدام أمن الطرق وتزايد أعمال اللصوصية، أما اليهود المقيمون بالمدن، فقد توفروا على تنظيم حرفي متقدم ومتكيف مع متطلبات الحياة الحضرية.

ومن جهة أخرى درست الباحثة دراسة لسانية نص قرارين ربِّيين يهمان حرفة الصياغة بالوسط الحضري، حُرِّرَا بمدينة فاس على التوالي سنة 1604 و1613، وقد أفضى التحليل اللساني للمعجم الوارد في هذين النصين إلى ملاحظات سوسيو اقتصادية ولسانية، تجلت في الكشف عن وجود مجموعتين يهوديتين مختلفتين على مستوى الأصول هما التوشابيم والميغوراشيم، وقد تكونت هذه المجموعة الأخيرة فوق التراب المغربي نتيجة عمليات الطرد التعسفي من إسبانيا والبرتغال من سنة 1492 إلى بدايات القرن السابع عشر (1609)، إذ يشهد حضور مصطلحات إسبانية ضمن هذه النصوص لتسمية الحلي، على حفاظ هؤلاء المهاجرين على مزاولتهم لحرفة الصياغة، بل وتفوقهم فيها على غيرهم، وتمكنهم من فرض المعجم الاسباني داخل فئة المحترفين للصياغة بالوسط اليهودي العربي.

أما بالنسبة لوثائق القرن التاسع عشر مثل الظهائر السلطانية والمراسلات بين ممثلي السلطات المخزنية المكلفة بمراقبة الأنشطة المالية والمعدنية، فتؤكد من جهتها على الدور البارز لليهود في هذه الأنشطة خاصة منها سك النقود وصنع الخيوط الذهبية والصياغة بالوسط الحضري. وقد وسَمَت بعض من هذه المراسلات هؤلاء الصاغة بإسم "صاغة أهل الذمة." ولعل السبب في عدم التفريق ههنا بين سك النقود والصياغة هو أنهما نشاطان يستلزمان حسب الباحثة نفس التقنيات الحرفية التي كان اليهود يتقنونها.

وإلى حدود النصف الأول من القرن العشرين، حافظ الجنوب المغربي على بنياته الاقتصادية العتيقة، فالساكنة الأمازيغية المسلمة احتكرت ملكية الأرض والزراعة، في حين اختص اليهود بالحرف اليدوية والتجارة الصغيرة، بل انفرد اليهود بمزاولة حرفة الصياغة في المناطق الجنوبية كالأطلس الصغير ووادي دادس ودرعة وتافيلالت وجبل باني وكتلة سيروا، ففي سنة 1913، أكَّد ناحوم سلوش (Nahum Slousch) في تقرير رفعه للجنة المركزية للرابطة اليهودية، وجود حوالي أربعين كانونا يهوديا بقرية تِلِّيت بوادي دادس، أغلب أفرادها يتعاطون الصياغة. وتنطبق نفس الملاحظة تقريبا على إغيل نوغو قرب تاليوين، بل إن شواهد القبور اليهودية به نقشت الكتابات الجنائزية عليها بأدوات الصاغة.

ومن جهة أخرى، واجهت الباحثة كما صَرَّحت بذلك، صعوبة في تحديد أصول التقنيات الحرفية لدى الصاغة اليهود خلال هذه الفترة، فقد كان من المستحيل تحديد أصولها، نظرا للحركية المستمرة لليهود نتيجة تنقلهم من مكان إلى آخر، وما جعل بعض التقنيات تنتقل من مجال إلى آخر، كما أن الهجرة الداخلية لليهود كان لها أثر لِسَاني على هذه الحرفة، فالحلي المصنعة من طرف اليهود في أمالن بتهالا، تحمل أسماء عربية، وهذا راجع حسب الباحثة سعاد الكتبية لاستقرار صاغة يهود بهذه المنطقة، ينحدرون من تافيلالت ودرعة اللتين تعرضتا للتعريب خلال القرن الثالث عشر عند اجتياحها من لدن قبائل معقل الجنوب المغربي.

ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين، ستتراجع أهم المراكز المعروفة بتصنيع المعادن في الجنوب المغربي تراجعا كبيرا، ويعود ذلك للركود الاقتصادي بالجنوب، والهجرة ما بين سنوات 1958 و1963 للصاغة اليهود في الجنوب نحو المدن، بسبب تحول عميق في البنيات الزراعية، جعل الصاغة اليهود يفقدون زبائنهم من الفلاحين المسلمين، فتم إخلاء أغلب ملاحات الجنوب، مقابل تركز اليهود بالمدن ذات الإشعاع الجهوي مثل مراكش وأگادير والصويرة. وهكذا أصبحت قرية تيليت سنة 1952 على سبيل المثال لا تتوفر إلا على صائغ يهودي واحد، وهو ما كان له وقع كبير على الإنتاج الحرفي بهذه المناطق، فقد اختفت مجموعة من الأشكال والنماذج الحرفية دون عودة.

أما عن الصاغة اليهود ذوي الأصول الإسبانية المستقرين في المدن، فقد ظلوا متشبثين بتقاليد الصياغة الموروثة أبا عن جد، وحافظوا في المدن الكبرى كفاس ومكناس وطنجة وتطوان ومراكش على دورهم في تصنيع المعادن الثمينة، ومازالت مجموعة من المتاحف الوطنية والدولية تحتفظ بنماذج من مصنوعاتهم الخاصة بالفترة الممتدة ما بين القرن الثامن عشر والعشرين، والتي ظلت تحمل اللمسة الاسبانية في طريقة الصنع، ولعل اسم "الغرناطي" الذي كانت تحمله بعض من هذه المصنوعات دليل على هذا الأصل الاسباني، وشاهد على استمرارية النماذج السائدة بالأندلس قبل النزوح صوب المغرب.

ومن جهة أخرى، يدل استعمال المعادن الثمينة والأحجار الكريمة حسب الباحثة سعاد الكتبية على الوضع الاجتماعي لهذه الطائفة من الحرفيين، فقد شكلوا طبقة وسطى تلي البورجوازية اليهودية المُكوَّنة من "تجار السلطان،" كما كانوا يتوفرون على حِنطة مستقلة خاصة بهم وبعيدة عن أية منافسة أجنبية، وهو ما يفسر احتكار اليهود إلى حدود هذه المرحلة لتصنيع المعادن الثمينة.

إلا أن مجموعة من العوامل الخارجية ثم الداخلية، ستقلب هذا المشهد الإثنوغرافي والجيوسياسي والاقتصادي في المغرب، وفي مقدمة هذه العوامل إقرار نظام الحماية ثم الاستقلال، وتدخل المنظمات الصهيونية في المغرب منذ سنة 1945، والإعلان عن قيام دولة إسرائيل، والحروب العربية الإسرائيلية، مما دفع باليهود إلى الهجرة منذ سنة 1948 نحو فرنسا وكندا وأمريكا وفلسطين.

وكان لهذا التحول وقع كبير على التوزيع التقليدي للمهام بين اليهود والمسلمين حسب الباحثة، فقد بدأ المسلمون يتعاطون شيئا فشيئا للصياغة بعد نفور طويل منها، إذ كشف إحصاء أجري سنة 2014 بملاح الذهب الذي كان مخصصا في السابق للصاغة اليهود بمراكش، عن وجود صَائِغَيْن يَهُودِيَّين فقط مقابل 61 صائغ مسلم. لكن ذلك أسهم بشكل أو بآخر في الحفاظ على التقاليد الفنية الضاربة في للصاغة اليهود من الانقراض، بل إن الصاغة اليهود الذين هاجروا إلى فرنسا على سبيل المثال، استمروا في إنتاج أشكال من الحلي مشابهة لما كانوا ينتجونه في المغرب قبل رحيلهم مثل الخميسة والطائر وما إلى ذلك.

وانتقلت الباحثة بعد هذه الجولة التاريخية الضاربة في أعماق الزمن والمجال، في المحور الثاني والأخير من الكتاب، لدراسة الموروث العِبري في صياغة المعادن الثمينة، وقيمته داخل بنية المتخيل اليهودي المغربي، فاختارت إلقاء الضوء على بعض الرموز الحاضرة بكثافة في المصنوعات الحرفية اليهودية خاصة منها الحلي، والتي انتقلت [نعني الرموز] إلى المجتمع العربي الإسلامي، حاملة معها معاني ودلالات خاصة بالثقافة والذهنية اليهودية المغربية، فالطائر وخاتم سليمان والسمكة والثعبان والرقم سبعة، وغير ذلك، قد تحولوا إلى أيقونات جد خصبة ومتداولة بشكل واسع في مختلف أشكال الصياغة المغربية اليهودية والإسلامية. كما اهتمت الباحثة بتقنية خيط الذهب المسمى الصقلي والمصنوعات المتصلة بالشعائر الدينية اليهودية السفاردية والأشكنازية والتي تحمل معا نفس الدلالات الرمزية.

ومن جهة أخرى، أكدت الباحثة أن اليهود والمسلمين في المجتمع المغربي يتقاسمون نفس المتخيل الاجتماعي، المكوَّن من تمثلات سحرية ودينية متطابقة، رغم الاختلاف الموجود على مستوى الدين والعقيدة. ومن هنا حاولت الباحثة تجاوز مستوى الوصف السطحي للمجوهرات التمائمية المستعملة من قبل المسلمين واليهود على حد سواء، محاولة الكشف عن أوجه الشبه بين هاتين الفئتين على مستوى السحر والتنجيم لتفسير هذه الظاهرة، فلجأت لتحقيق ذلك إلى مقارنة نصوص كلاسيكية متصلة بهذه العلوم، أحدها إسلامي وهو كتاب "شمس المعارف الكبرى ولطائف العوارف" لأبي العباس أحمد بن علي البوني، والاثنان المتبقيان يهوديان وهما "سِفر رازيم" و"سِفر رازييل،" وقد أبانت هذه المقارنة بالفعل عن تشابه المواضيع المطروقة وتقاسم نفس المفاهيم.

ختمت الباحثة الكتاب بخلاصة عامة وملحق غني بصور فوتوغرافية منتقاة لحلي حضرية وأخرى قروية من الجنوب المغربي، ونخبة من الأشكال الحيوانية الحاضرة في تشكيل هذه الحلي مثل السمكة والعقرب والثعبان والعظاية، إضافة إلى بعض المنتوجات الحرفية ذات الاستخدام الطقوسي لدى اليهود المغاربة. وتلى ذلك تقديم لائحة المصادر والمراجع والتي تكونت من نصوص الإخباريين والجغرافية العرب والمراسلات المغربية الرسمية المحفوظة في المكتبات العمومية

ومراكز الأرشيف بالمغرب، وجملة من المؤلفات في الأدب القانوني لليهود المغاربة، خاصة منها التقنوت والرِّيسبُونسا، دون أن ننسى الدراسات الكولونيالية والحديثة وهي متنوعة جدا.

سمير أيت أومغار
أستاذ باحث، مراكش